المنفيونَ إلى جوار السحابِ

عبد الجليل العباسي - المغرب

في هذا الصباحِ، أجلس على كرسيٍ، كُسِرَتْ قائمتان من قوائمه الأربع ورُبطتا بالحبالِ، يُوشِكُ الكرسيُّ أَنْ يهْوي بي أرْضا لَوْلا أنْ تَدَارَكَتْهُ رحْمةُ الجدارِ الخلفيِ للقاعةِ الدراسيةِ الذي أسْنَدَهُ، أنْظرُ إلى السَّقْفِ وَقَدْ نُزِعَتْ بعْضُ ألواحِهِ الخشبيةِ وأزْرَتِ الأمْطارُ والثلوجُ بالبقيةِ الباقية منْها، وَأُجيل نظري بين الجدرانِ المتّسخة كثياب التلاميذ، وأرضيته الملأى بالحفر وطاولاته المكسّرة وكأنّ القسم تعرّض لقصفٍ عنيف، فأتذكّر الحروب المدمّرة التي تعصف بالبلدان الأخرى: سورية والعراق واليمن وليبيا و.... لا حرب في بلادي، حمدًا لله على نعمة الأمن.

أتقدم باتجاه السبورة أتأمّل ما تَخُطُّهُ يدُ تلميذٍ في السنةِ الخامسةِ ... التلميذ لا يزال يجهل بعض أحرف الهجاء ... هل أتمالكُ أعصابي أم أشرعُ في الصراخ والهجاء؟ أكظم غيظي وأصفحُ فليس خطأَه على أية حال، إنه خطأ الجميع ... أتساءل إلى أين نمضِي بتعليمنا؟ وإلى أين يمضي بنا تعليمُنا؟!

أوجّه سؤالًا إلى تلاميذ السنة السادسة فيعجزون ويجيبُ تلميذٌ من السنة الثالثة يدعى "كمال"، فأنا أدرّس قسمًا من أربعة مستويات ... أثني على "كمال" وأسألُه عن حال والده الذي نطحَهُ ثورٌ قبل يومين واستغرق

نقله إلى أقرب مستشفى يومًا كاملًا، فالطريق وعرٌ ووسائل النقل نادرةٌ، فيخبرني التلميذ بأن والده عاد إلى المنزل وأنه بخير.

لا تجد أصواتُ فتياتٍ يافعاتٍ في الخارج صعوبةً في اقتحام القسم من زجاج النوافذ المكسور، صوتُ إحداهن مألوفٌ، إنها "ليلى"أخت "كمال"التي اعتادت المجيء إلى جوار القسم الآخر لعلها تظفر بتحيةٍ أو ببعض الكلام من زميلي الذي حسبته "قيسًا"فأشاعت في صُوَيْحِبَاتِهَا أَنَّهُ الحَبيبُ الذي سيُخرجُها من ظلمات الجبالِ إلى أنوارِ السهلِ، فبلوغ السهل أو"أَزَغَارْ"كما يسمونَهُ باللسانِ الأمازيغي هو حلمُ كل شابٍ وفتاةٍ في هذه الجبال... بلوغ القمة هنا ليس حلما لأحد.

أطلبُ من التلاميذ ذكر أسماء دولٍ يعرفونها... فيذكر أغلبهم أسماء القرى المجاورة ... والأذكياءُ منهم يذكرون أسماء المدن المغربية وأكثرها ذكرًا على ألسنهم "مراكش"التي يسميها أغلبهم "أزغار"وكأنَّ هذه المدينة تختزل سهول الدنيا ... ولا غرابة فغالبيتُهم لم يَرَوْا مدينة قطّ وأبعد نقطة وطِأَتها أقدامُهم هي القريةُ التي يُقامُ بها السوقُ الأسبوعي كل سبت.

قُبَيْلَ العصر أعودُ إلى قِسْمي بعد الغذاء والراحة في منزلي الذي لا يفصلُهُ عن القسم إلا هذا الجدار الذي يسند الكرسي المكسور... لا عمل هذا المساء... ما أروع هذا الهدوء!... تقطع الهدوء أصوات رجال القرية، أطّلع من النافذة فأراهم يحفرون قبرًا... لمن هذا القبر؟ أُسَرُ القرية تعدّ على رؤوس الأصابع ... أهل القرية أعرفهم فردًا فردًا بعدة أسفار التوراة أو يزيدون قليلًا ... قبل أيام حفروا قبر رضيعٍ تُوُفِّيَ بعد أن تم إعذاره في البيت... من الميْتُ اليوم؟ يتعالى من المسجد صوت تسجيل قرآنيّ ... أهرع إلى القسم

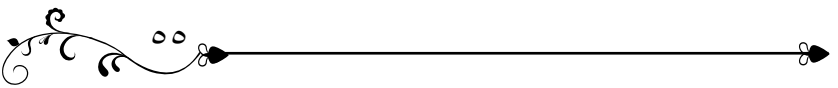

المجاور فيخبرني الأستاذ بأن "محمدًا" والد "ليلى" و "كمال"لفظ النفسَ الأخير قبل ساعتين أو ثلاث، صَدَمَني خبر الموت المفاجئ، كيف وقد أخبرني ابنه قبل ساعات أنه غدا بخير، تفكّرت في الموت، ما أقصر الحياة! ... في يتم الأبناء ... في آمال الفتاة، هل يحقّقُ الفارس أحلامها؟ ... تزاحمتْ الأفكار في رأسي ... الحبُّ والموتُ هما -وهما فقط- اللذان يعجزان فكرَوعبارةَ كل كاتب وفيلسوف وشاعر ... أعود إلى القاعةِ لأجلس على الكرسي... هذه المرة لا تتداركه رحمةُ الجدارِ!